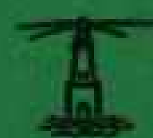
المكتبة الخضراء للأطفال

٥٩

ثروة تحت الأرض

تأليف
يعقوب الشارونى

رسوم
عادل البطراوى



المكتبة الخضراء للأطفال

٥٩

ثَرْوَةٌ تَحْتَ الأَرْضِ



تأليف
يعقوب الشارونى

رسـوم
عادل البطراوى



دار المعارف

١ هُروبٌ مِنْ رِجالِ السُّلطانِ

إنَّهم يطاردونَنِي.. تركْتُ بغدادَ هاربًا من السُّـلطانِ ومن عُيونِ المُنتفعينَ بوجودِهم حولَ السُّلطانِ!..

تَهامَسَ المُنتفِعونَ: «بَيْتُ المالِ خاوٍ والتُّجَّارُ يَخْسرونَ!».

أمرَ السُّـلطانُ: «خُذوا دينارًا ضريبةً من كُلِّ رجلٍ ونصفَ دينارٍ عن كُلِّ امرأةٍ..».

ولمَّـا كنْتُ أعملُ أمينًا لديـوانِ بَيْتِ المالِ وأصبحْتُ أكثرَ مِنْ غيرى معرفــةً بأحــوالِ النــاسِ , فقد عَبَّرْتُ عن رأيِـي.. قلْتُ: «الشـعبُ فَقيرٌ والتُّجَّارُ يُخْفونَ ثرواتِهم!».



وَمنـــذُ أعلنْتُ هَذهِ الحقيقَةَ فِي مَجْلسِ السُّـــلطانِ وَهُمْ يطَارِدُونَنِي .. تَصوَّروا أَننِي أُثيرُ السُّلطانَ ضِدَّ التُّجَّارِ، وأَنَّ مَا قلْتُه إعْلانٌ لِلحربِ عَلَى التُّجَّارِ، وهُمْ أقربُ الأصْدقاءِ لرجَالِ السُّلْطانِ .. بَلْ ظَنُّوا عِبارَتِي إشارةً إِلَى استْفَادةِ بعضِ رِجالِ السُّلطانِ مِنْ ثروَاتِ التُّجَّارِ ! !

وبدأَتِ الحربُ ضِدِّي ! !.

قالوا : «إنَّ «عبدَ المُنصفِ الخَضْراوِي» بدَّدَ أموالَ بيتِ المَالِ، بحجَّةِ التَّصدقِ بهَا عَلَى الفُقَراءِ ! »...

وَمَعَ أَنَّ السـلطانَ كانَ يُسـلِّمُ بنفسِــهِ إِلَى كلِّ مُحتاجٍ مَا يُخفِّفُ عنهُ حاجتَهُ، فقد طالبَتْنِي سُلطـاتُ التَّحْقيقِ والتفتيشِ بمَـا يُثبتُ تَسْليمَ تلـكَ الأموالِ إِلَـى مُسْـتحقِّيهَا، وَإلَّا فأكُون قَدِ اختلسْـتُهَا وأخذْتُهَا لنفْسِي ! !.

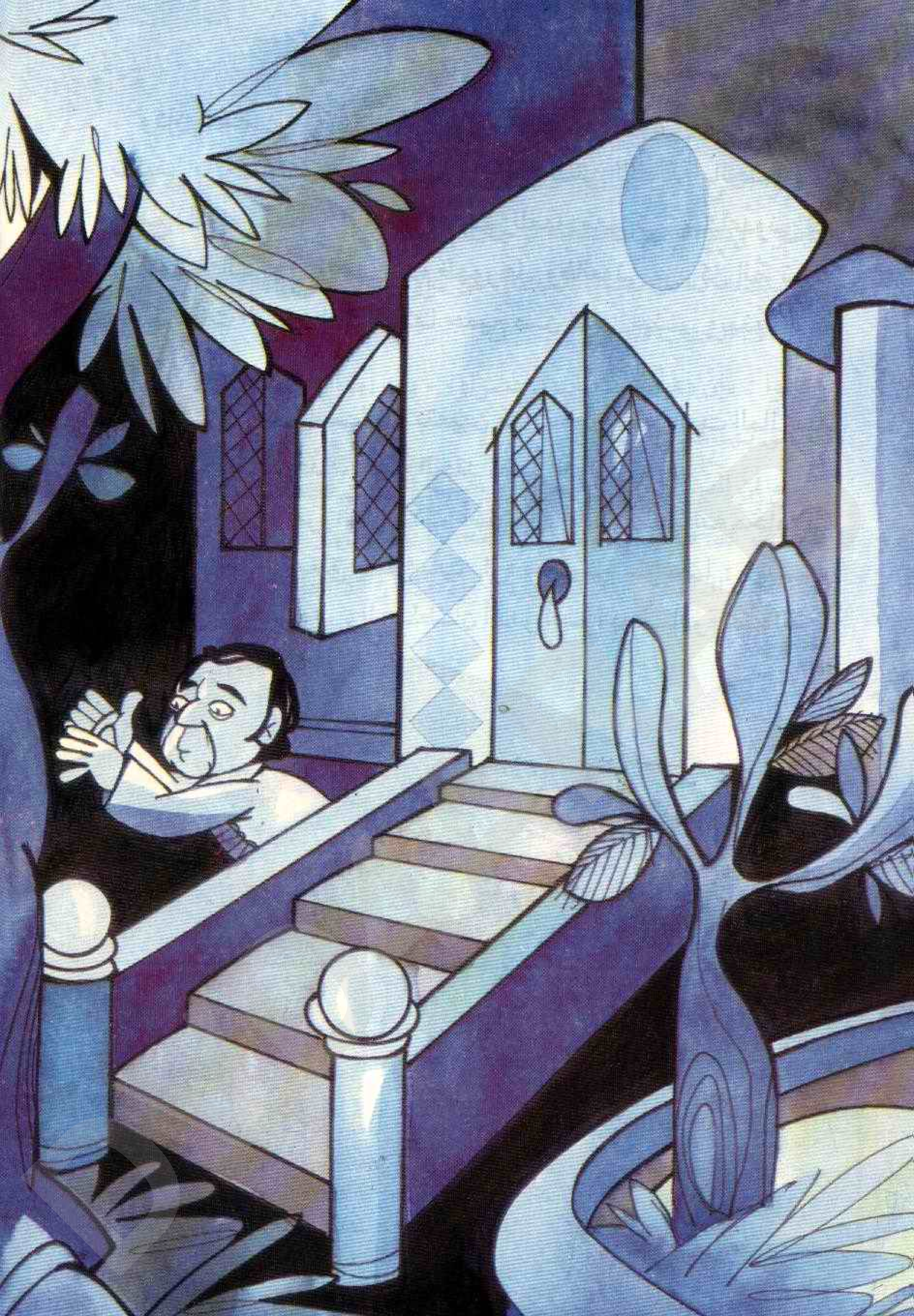


وكانَ بعـضُ إخْوتِي وَأولادِ عَمِّي يعملُـونَ فِي دِيوانِ بيتِ المَالِ قبلَ تكليفي بالإشـرَافِ عَلَيه، لِخبرةِ أفرادِ عَائلتِي الطَّويلةِ بالحسَاباتِ، ومـعَ ذلـكَ اتَّهمُونِي بإلحَاقِ أقَاربِـي للعمَلِ مَعِي كَيْ يُسـاعِدُونِي فِي إخفاءِ سَرقاتٍ أحرصُ عَلَى عدمِ ظهورِهَا، وَطَالبونِي بردِّ كُلِّ المُرتَّباتِ وَالمُكافـآتِ الَّتِي حصـلَ عَلَيها جَميعُ مَـنْ تكونُ بينِـي وَبينَهُمْ صِلةُ قرابةٍ!.

ثُمَّ أَشَـاروا عَلَى السـلطانِ بتعيينِ مَنْ يفحَصُ شئونَ بيتِ المَالِ منذُ تولَّيْتُ أمورَهُ، فوجدْتُ حلقةَ الحقدِ تضيقُ حولِي.

وعندما ذهبْتُ سرًّا أزورُ صديقًا أَسْتشيرُهُ فيمَا وصَلَتْ إليهِ مُحَاولاتُ الكَيْدِ لِي، أَسْـرعَ يُغلِقُ خَلْفي بابَ دارِهِ ويُنذِرُنِي مُنزعِجًا : « أسـرِعْ بالفـرارِ يَا خضراوِي.. السُّـلطـانُ أَصْدرَ أمـرًا بمصَـادرةِ أمـوالِكَ..

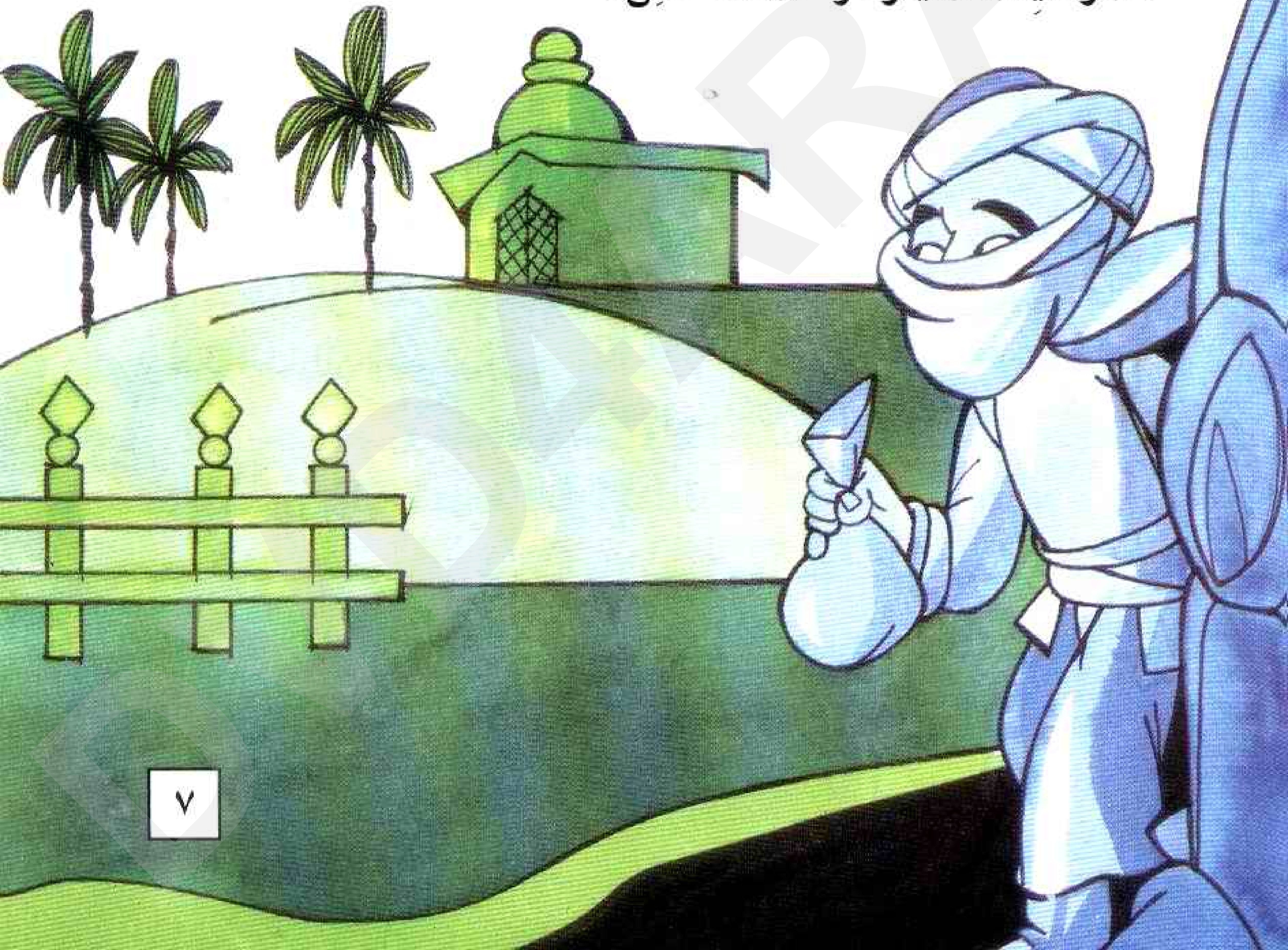




الجنودُ ينهبونَ الآنَ بيتكَ لحَساب بيتِ المالِ..»

هكذا أصْدروا الحكمَ بإدانتي ونفَّذوا العقوبةَ بغير مُحاسَبةٍ ولاَ مُحاكمةٍ، ولاَ إتاحةِ فرصةٍ للاسْتماع إلى دفاعِي، أو انتظارِ نتائج الفحْصِ الذي يقومُ بهِ مَنْ اختارهُ السلطانُ لمراجعَةِ حِسابَاتِ بيتِ المَالِ!.

أعطانِي صَديقي كيسًا بهِ دنَانير تُعينُنِي علَى مُوَاجهةِ المَجْهولِ، وتسلَّلْتُ مِنَ البابِ الخَلفيِّ لبَيْتِهِ مُستترًا بظلامِ الليلِ، وقَد ارتديْتُ مَلابسَ الخدَمِ وأخفَيْتُ وَجْهِي بالقَدْرِ الذِي لا يُثيرُ الريبةَ والشكَّ، فالجَوَاسيسُ لَنْ يتوقفُوا عَنْ مُلاحَقتِي..





وكانَ مِنَ المُسْتحيلِ التوصُّلُ إلَى وَسيلَةٍ لوداعِ زَوْجتِي العَزيزةِ «ياسمين» أو ابنَتِي الحبيبَةِ «بسمة»، وإلاَّ وقعْتُ فورًا بينَ مخالبِ رِجَالِ السلْطَانِ وَعُيُونِهمْ..

بَلْ أيْنَ أَجِدُ زوْجتِي وَابْنتِي وَأَنَا أعرفُ مِنْ خِبرْتِي فِي أَحْداثٍ مُمَاثلةٍ، أنَّ «الباحثينَ عَنِ الثروَاتِ» قد طردوهُمَا بغيرِ شَكٍ مِنْ بيتِي، بعدَ قيامِهِم بنهْبِ كلِّ مَا فيهِ والاسْتيلاءِ عَليه؟!.

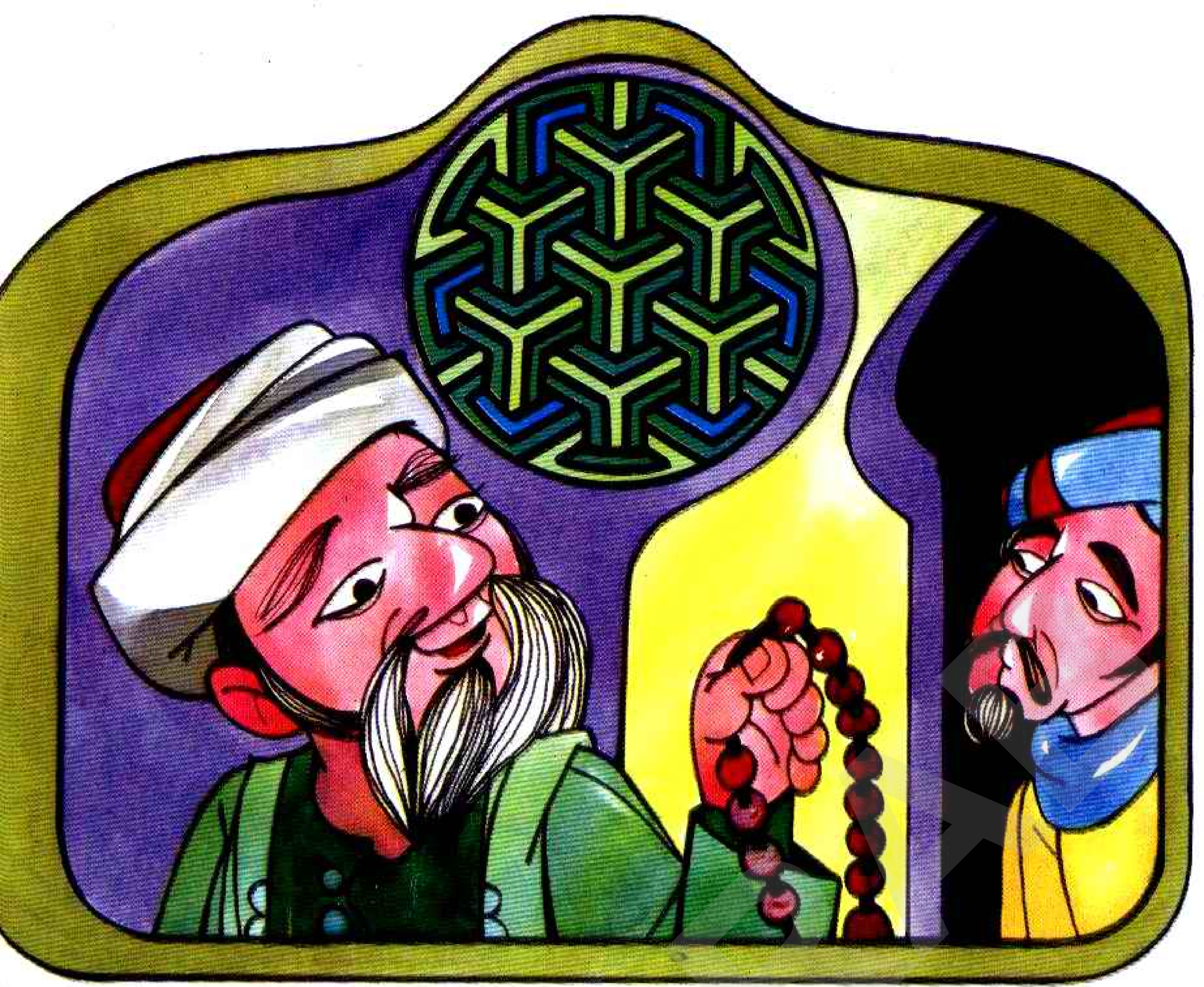
خرجْتُ هَائمًا علَى وجْهِي، أتنقَّلُ مُتخفِّيًا مُطارَدًا مِنْ قريةٍ إلَى أُخْرى، حَتَّى وَصلْتُ مُعْدَمًا شرِيدًا بعدَ شُهورٍ طَويلةٍ إلَى دمشْق.

٢ نَصيحةُ الشّيخِ عبدِ المؤمنِ

كانَتِ الدَّنانيرُ القليلةُ التى مَعِى قَدْ نفدَتْ، فَلَمْ أَسْتطعْ شِرَاءَ طعامٍ ولاَ العثورَ عَلَى مكانٍ آمنٍ أَبيتُ فِيه.

قصدْتُ أحدَ المسَاجدِ، وَاخترْتُ بعدَ صَلاَةِ العشَاءِ رُكْنًا بعيدًا لجُلُوسِى وَأَنَا أَشعُرُ بإرهَاقٍ شدِيدٍ لاَ شكَّ أنه ظَهرَ واضِحًا عَلَى وَجْهِى، فاقتربَ مِنِّى شَيْخٌ جليلٌ تبدُو عليهِ الهَيْبَةُ كانَ يتأهَّبُ لمغَادرَةِ المسْجِدِ.





حَاولْتُ إغمَاضَ عينَىَّ والتَّظَاهُرَ بِالنَّوْمِ لأتفَادَى أَسْئِلَةَ المُتطفِّلِينَ، لكنَّنِى سَمِعْتُ الشَّيْخَ يَسْألُنِى فى لهجَةٍ هَادئَةٍ تُثِيرُ الاطمِئنَانَ: «غَرِيبٌ؟».

اضطــرِرْتُ إلى الإجَابةِ فِى صَوْتٍ مُتناعِسٍ: «أَرجُو أَنْ يسْــمحُوا لِى بقضَاءِ اللَّيْلِ هُنَا».

قَالَ بنِفسِ الهدُوءِ: «خلفَ هَذَا المسجِدِ قصرٌ عَظِيمٌ، اذْهَبِ الآنَ إِلَى هناكَ، وقُلْ للحَارِسِ: الشَّيْخُ عبدُ المُؤمنِ أَرْشدَنِى للمَجِىءِ». وَلَمْ يترِكْ وَقتًا لسؤَالٍ آخرَ، فقدْ وَاصلَ سَيْرَهُ حَتَّى خَرَجَ مِنَ المسْجِدِ.

شـعرْتُ بالتردُّدِ وَأنا أَقُولُ لنفْسِي: «وَإذا سَألَنِي الواقِفُ عَلَى باب القصْرِ عَنْ سببِ ذَهابِي إليْه، فبمَاذا أجيبُ؟! هَلْ مِنَ المعقُولِ التوجُّهُ إليهِ لأقولَ بغيْرِ مُقدِّماتٍ إننِــي جئْتُ طَلبًا للطَّعامِ وَالمَأوَى؟! كيفَ وَمَتَى أصبحَــتِ القصُورُ بيوتًا للصَّدَقةِ تُرحِّــبُ بالهَارِبينَ مجْهُولي الشَّــخْصيَّةِ مِثْلِي؟! ومَنْ أدْرانِي، قَــدْ يكُونُ صَاحِبُ القصْرِ عَلَى صلةٍ بأحدِ رجالِ السلطَانِ الذِينَ تنتشِرُ عُيُونُهم فِي أنحَاءِ البِلَادِ!».

لكننِي وَجَدْتُ حَارِسَ المسْـجدِ يُطفِـئُ القنادِيلَ بعدَ انصِرَافِ كُلِّ الناسِ مَا عَدَاي.

وَقبلَ اقترابِهِ نَاحِيَتِي ليسْألَ عَنْ سببِ بَقائِي وَقَدْ مَضَى الآخرونَ، تَحَاملْتُ عَلَى نفْسِي وَخَرجْت.



٣ دخلتُ من البابِ الصغيرِ

لَمْ يكُنِ التعرُّفُ عَلَى القصْرِ صَعْبًا، فَمِساحتُهُ الكبيرةُ لَمْ تتركْ مكانًا لبناءٍ غَيْرِهِ خلفَ المسْجِدِ، لكنني لَمْ أجرُؤْ عَلَــى التقدُّمِ نَحْوَ بابِهِ.. كنْتُ أَشكُّ فِي كلِّ شَيْءٍ خوفًا مِنَ انكشَافِ شَخْصِيَّتِي.

تأمَّلْــتُ البناءَ الشَّــامِخَ تُزيِّنُ مَدْخَلَهُ العالِيَ نقــوشٌ عربيةٌ دقيقةٌ، تــدُلُّ عَلَى ذَوْقٍ رَفيعٍ وثَــراءٍ عَظِيمٍ، والبابُ هائلُ الحجْــمِ مَصْنوعٌ مِنْ كُتَلِ خَشَبٍ ثَمِينٍ تحزِمُهَا معًا شرائطُ عَرِيضةٌ مِــنْ نُحَاسٍ مَحْفُورٍ فيهَا نُقُوشٌ لمَخْلُوقَاتٍ خياليةٍ لَهَا رؤُوسُ بشرٍ وأجسَامُ طُيورٍ.





وَفِـى الجـزْءِ الأَسْـفَلِ مِنَ البـاب فتحَةٌ لهَـا بابٌ صغيـرٌ لدُخُولِ القَـادِمينَ، بـينمَا الأبـوَابُ الكبـيـرةُ لا يفتـحُونَهَا إلاَّ لاسْتقبَالِ زائرٍ عَظيم يُفسِـحونَ لهُ الطَّريقَ إلى الفِناءِ الذِى يتوسَّـطُ القصْرَ لكىْ يَدْخلَ وهُوَ راكبٌ حِصَانَهُ أوْ بغلتَهُ.

وقفْتُ فِى الظَّلامِ أُرَاقِبُ البابَ، فَلاحظْتُ رجُلاً يجلِسُ بِجوَارِهِ علَى مقْعَدٍ مُنْخَفِضٍ.

وَعندمَـا عَبرَ الطريقَ أَمامِى رجلٌ بِصُحبتِهِ امرأةٌ يحْمِلاَنِ مِشْـعَلاً، سَـقَطَ الضَّوْءُ عَلَى وَجْهِى وَأَنا أَقِفُ مُنكمِشًـا حَوْلَ نَفْسِـى، فَوَجَـدْتُ الحَارِسَ يقِفُ ويتَّجِهُ ناحِيَتِى.



صَــوَّرَتْ لِى مَخَاوِفِى أَنَّ الشــكَّ دَاخَلَهُ فِى أَمْــرِى فَحَاوَلْتُ التراجُعَ لأبتعِدَ، لَكِنَّهُ نَادَانِى: «تَمهَّلْ.. هَلْ تنتظِرُ أَحَدًا؟».

وَبغَيْرِ تفكير كثير وَبسَــبب إرهَاقِى الشَّديدِ نَسِيتُ تردُّدِى وقلْتُ: «أرسلَنى الشَّيْخُ عبدُ المُؤمِنِ..».

فِى الحَالِ تغيَّرَتْ مَلامِحُ وجْهِ الحَارِسِ مُعبِّرةً عَنِ التَّرْحِيبِ وَهَتَفَ بِى: «وَلِمَاذا تَقِفُ بَعِيدًا؟! تَفضَّلْ!».

هَكَــذَا بغَيْرِ سُــؤَالٍ عَــنِ اسْــمِى أَوِ اسْتفسَــارٍ عَمَّنْ أكــونُ، دَعَانِى للدُّخُولِ!.

وَفَتحَ لِى البابَ الصَّغِيرَ.



٤ بِكَ اكتمَلْنَا خمسةً

وَجدْتُ نَفْسِى فِى الفِنَاءِ المُتَّسِعِ الَّذِى يتوسَّطُ الغُرَفَ والقاعَاتِ الَّتِى ارتفعَتْ طَابقَيْنِ. وأشـارَ الحَارسُ إلَى مَقْعَدٍ طويلٍ مِنَ الخَشَبِ فِى أحَدِ جَوَانبِ الفناءِ المُظلِمَةِ وهُو يقولُ: «استرِحْ هُنَا».

فُوجِئْـتُ عندَمـا اقتربْتُ، بوجُـودِ أربعَةِ رجَالٍ آخرينَ سـبقُونِى وَجَلَسوا عَلَى نَفْسِ المقْعَدِ.

وَلَمَّـا كنْتُ قَدِ اعتدْتُ منذُ هُروبِى ألاَّ أَبْدأَ حدِيثًا مَعَ أَحَدٍ وَلاَ أرحِّبَ بحَدِيثٍ مَعَ غُرَباءَ، فقدْ جَلسْتُ صَامِتًا لاَ أنطِقُ..

لكنَّنِي وَجَدْتُ أقربَ الجَالِسِينَ إلَى جِوارِى يَمِيلُ نَاحِيَتِى وَيقُولُ: «بكَ اكتمَلْنا خمسةً...».

لَمْ أَفْهَمْ ماذَا يَقْصِدُ لكنَّنى لَمْ أتحمَّسْ لإلقاءِ أَسئلةٍ..

وَلَمْ يمنعْنِى هَذَا مِنَ التساؤلِ بينِى وبينَ نَفْسِى: «لِمَاذَا خَمْسَةٌ؟! وَمَا سَـبَبُ انتظَارِ هؤُلاَءِ؟! هَلْ هُمْ ضيوفٌ عَلَى صَاحِبِ القصْرِ؟! وَإِذَا كانُوا ضُيوُفًا فَلِمَاذَا لَمْ يُرشِدْهُم الحَارِسُ إلَى قَاعَةِ الاسْتقبالِ؟!».

عَـادَ الرجلُ المُجاورُ لى يقُولُ: « حَارِسُ البَابِ أخْبرَنِى أَنَّ صاحبَ القصرِ لَنْ يتأخَّرَ علينا طَوِيلاً..»



ظَلِلْتُ مُحافِظًا عَلى صَمْتِى وَقَدِ ازدادَتْ حَيْرتِى: «إذَنْ فهُمْ فِى انتظارِ صَاحِبِ القَصْرِ نَفْسِهِ، لِكنْ مَا شأنِى لأنضمَّ إليهِمْ؟!».

تأمَّلْتُهم.. كلُّهُم يَرتَدُونَ مَلابِسَ خَشِنَةً تدلُّ عَلَى رِقَّةِ الحَالِ، وَشَعْرُ لحَيةِ كُلٍّ مِنْهُم مُشعثٌ غيرُ مُنسَّق.

وَاصَلْتُ حِوَارِى الدَّاخِلِىَّ: «هَلْ يعرِفُ بعضُهُم بعضًا، أَمْ هِىَ الصدفةُ جمعَتْهُم كَمَا جَمَعَتْنِى مَعَهُم؟ وَمَا الغَرَضُ مِنَ اجتمَاعِهِم الَّذِى يَرْتَبِطُ بِمَجِىءِ صَاحِبِ القَصْرِ؟».

وَمَعَ قَلَقِى بِسَبَبِ كلِّ هَذَا الغُمُوضِ، لَمْ أُفْصِحْ بكلمَةٍ عَنْ خَوَاطِرِى الحَائِرةِ.



سَألَنِى شَخْصٌ آخَرُ مِنَ الجَالسِينَ فِى صَوْتٍ مُسْتفِزٍّ: «هَلْ تَسْمعُنا؟!»

ثُمَّ التَفت إلى البَاقِينَ وَقَالَ سَاخرًا: «يبدُو أنه أبْكَمُ! «ثُمَّ أَضَاف فِى نفْسِ اللَّهْجةِ السَّاخرةِ: «أَوْ لعلَّهُ يَخَاف مِنَّا!!».

وضَحِكَ ضحكةً خشِنَةً!.

ولمَّا كنْتُ لاَ أُحِبُّ أَنْ أُصبحَ محَلَّ اهتمَام خَاصٍّ، فقدْ اضطررْتُ إلى التَّعْبيرِ بصدْقٍ عَنْ حَالتِى.. قلْتُ: «بلْ أنَا مُتْعَبٌ أَكَادُ أَسْقطُ مِنَ الإرهَاقِ والإعْيَاءِ.

سَألَنِى السَّاخِرُ المُستفِزُّ: «مِنَ الإرهَاقِ أَمْ الجُوعِ؟! «ثُمَّ واصَلَ إطْلاقَ ضَحِكَاتِه.

وأحسَّ الجَالسُ بجَوارى بخُشُونةِ المُستفِزِّ فأَسْرَعَ يقولُ: «نحنُ جَمِيعًا فِى انتظَارِ تناوُلِ العشاءِ مع صاحِبِ القَصْرِ!».



٥ الحكاياتُ تَحلو أثناءَ العَشاءِ

فُوجئْتُ بِضَوْءِ مِشْعَل يترامَى مِنْ باب إحْدَى قاعَاتِ الطَّابقِ الأرضِيِّ المُطِلَّةِ عَلَى الفِناءِ الَّذى لَمْ تكُنْ تُضيئُهُ إلا نجُومُ السَّماءِ.. عِندئذٍ تذكَّرْتُ أننِى شاهدْتُ بعضَ الأضوَاءِ الخَافتةِ فِى تلكَ القاعَةِ، تُصاحِبُها أصْواتٌ خَافتةٌ لَمْ تكْشِفْ لى عَنْ شَيْءٍ.

ثُمَّ ظهرَ مِنَ الباب تابِعٌ يحمِلُ مِشْعَلاً يُضيءُ الطريقَ أمامَ رجُلٍ يَبْدُو عَليـه التقدُّمُ فِى العُمْرِ، فقدْ تراقصَ ضَوْءُ المِشْـعَلِ عَلى شَـعْرِ لحْيتِهِ الأبيضِ الذِى أحسَنَ تَسْويَتَهُ، كَمَا كانَ يمشِى مُتوكِّئًا عَلَى عَصًا.

وقَفْنا لتحِيَّتِهِ وهُوَ يتقَدَّمُ ناحِيَتَنا وَابتسـامةُ تَرْحِيبٍ عَلَى شـفتَيْهِ كأنه يَعْرِفُنَا منذُ زمَن.. قَالَ: «أهْلاً بضيوفِى عَلَى العَشاءِ هَذا المساءَ.. أرْجُو ألاَّ أكونَ قدْ تأخَّرْتُ عليْكُم.. تَفَضَّلوا..».



وَأَشارَ بيدِهِ إلَى مدْخَلِ القاعَةِ الَّتِى خرجَ منهَا، وَتَركَنا نتقدَّمُهُ خلْفَ التابعِ الَّذى قادَنا إلَى المائدَةِ الَّتى سَبَقَ إعدادُهَا.

جَلَسَ صاحِبُ البيتِ عَلَى بعْضِ الوسَائِدِ الَّتِى تناثرَتْ حولَ «صينيةِ العَشاءِ» الحافلَةِ باللُّحومِ والخُضْراواتِ والحَلْوَى والفوَاكِهِ وَالخُبزِ، ودعَانا فِى بسَاطةٍ إلَى اتخَاذِ أماكنِنا حوْلَها. وَرغمَ إحساسِى الشديدِ بالجُوعِ، حَاولْتُ المحافظةَ علَى مَا اعتدْتُ عليْهِ مِنْ تمهُّلٍ عندمَا أجْلسُ أمامَ المَائِدَةِ، بينما انقضَّ الأربعةُ الذِينَ كانُوا مَعِى يتَسابقونَ فِى نَقْلِ مَا عَلَى «الصينيةِ» إلى أفْوَاهِهم!!.

كنتُ أراقبُ صَاحبَ البيْتِ خِفْيَةً وهُوَ يتأمَّلُ طريقَةَ كُلِّ وَاحدٍ منَّا فِى تناوُلِ الطَّعامِ وقَدْ رُحْنا نأكلُ والصَّمتُ يسُودُ بيننَا، فنحنُ غُرباءُ لَمْ يَسْبقْ أَنْ عرَفَ أحَدُنا الآخرَ، لذلكَ لَمْ تكُنْ هُناكَ موضُوعاتٌ مُشتركَةٌ يُمكِنُ تبادُلُ الحَديثِ حولَهَا. وأرادَ صَاحِبُ البيتِ كَسْرَ حَاجزِ الصَّمْتِ فقالَ:

«قَدْ يتساءلُ أحَدُكُم عَنِ السَّببِ فِى اسْتِضَافتِى خمسَةً عَلَى العشاءِ كلَّ ليلةٍ.. السَّببُ ببساطةٍ أننِى لا أبتغِى إلا رضاءَ اللهِ، كَمَا أحبُّ كثيرًا الاستماعَ إلى الحكاياتِ».

وتَمهَّلَ قبلَ أَنْ يُضيفَ : «والحكاياتُ تحلُو أثناءَ العَشاءِ، فَهَلْ عندَ أحدِكم حِكايةٌ تُسلِّينا أو تُعطينا خِبرةً ومعْرِفةً؟».



٦ حكايةٌ نحكِيها على انفِرادٍ

لَمْ يكُنْ عِنْدَ زُمَلائِي اَسْـتعدَادٌ للتوقُّفِ عَن ابْتِلاَعِ الطَّعامِ، بينمَا قَصُّ الحكَاياَتِ يحتَاجُ إلىَ تفرُّغِ الفَمِ للكَلاَمِ وليسَ للمَضْغِ!.



عِندئـذٍ وجَدْتُ صاحِبَ البَيْتِ كأنمَا يتوجَّهُ بحَدِيثِهِ لِى أَنَا عندمَا لم يجدْ أَحَدًا غيرى قَدْ تَوقَّفَ عَنِ المضْغ:

«مَثَلاً.. هلْ عند أحَدِكم حِكايةٌ عَنْ شخْصٍ أَصَابَهُ الظلْمُ بسَبَبِ سَعْيِهِ لخَيْرِ الفُقَراءِ والبُسَطاءِ مِنَ النَّاسِ؟».

لَسْتُ أدْرِى لماذَا أحسسْتُ أنَّ صاحِبَ البَيْتِ أَدَارَ حَدِيثَهُ بعنايَةٍ منذُ البدَايةِ ليصِلَ إلى إلقاءِ هَذا السُّؤَالِ!..

هَمَسْتُ لنفسِى وَقدِ اسْتشعرْتُ الحَذَرَ:

«هذَا الشَّـيْخُ الوَقُورُ الذِى يبدُو عليْهِ الصَّلاَحُ، هَلْ هُوَ عَيْنٌ مِنَ عُيُونِ رجَالِ السُّـلْطانِ، يَجْعلُ مِنْ دَعْوتِهِ الغُرَباءَ إلى العَشاءِ فِى بَيْتِهِ وَسيلةً ليصِلَ إلىَ شَخْصٍ يعرِفُ بعضَ أخبَارِى أَوْ أخبارَ غيرِى؟!».

فِى تَصْميمٍ قرَّرْتُ تغييرَ مجْرى الحَدِيثِ.. قلْتُ:

« أظـنُّ أنَّـهُ ليسَ هنـاكَ مَا يحملُكَ عَلـى طَلَبِ مثل هـذَا النوعِ مِنَ الحِكَاياتِ أيهَا السـيِّدُ الكريمُ، إلاَّ مُعَاناتُكَ أنتَ نفسـكَ مِنَ ظُلْمٍ شَدِيدٍ نتيجةَ اهتمَامِكَ بمصْلحَةِ الآخرينَ!».

التفتَ نَجْوى بنظْرةٍ حَافلةٍ بالتَّساؤلاتِ، جَعلَتْنى أَفْهَمُ أنَّهُ لَمْ يسبقْ لَهُ تلقِّى مِثْلَ هَذِه الملاحظةِ مِنْ غيرِى علَى مائدتِهِ.

حَدَّثْتُ نفسِى: «هَلْ يُريدُ الاستِمَاعَ لِى، أَمْ أرادَ البحْثَ عَمَّنْ يستمِعُ إليهِ؟!».

فُوجئْتُ بهِ يُوجِّهُ الحَديثَ لِى مُباشَـرةً: «أرجُو أنْ تنتظِرَ قليلاً بعدَ انتهَاءِ العشَاءِ، مَادمْتَ أنتَ الَّذِى استَطعْتَ أن تكتشِفَ شيئًا يتعلَّقُ بمَا يُدورُ فِى ذِهْنِى.. سيكُونُ لِى معَكَ حَديثٌ خاصٌّ».

أحسسْتُ بالقلقِ.. استيقظَتْ داخِلِى كلُّ إنذارَاتِ الحَذَرِ!.

٧ الحذرُ والشّكُّ !!

«هَلْ تركْتَ خَلفَكَ زوجَةً وأبناءً ؟».

فَاجَأني الشَّـيْخُ صَاحِبُ الدَّارِ بالسؤالِ كَأَنَّهُ لطَمَنِى بِهِ عَلَى رَأْسِى.. قفزْتُ وَاقفًا فظنَّ أننِى أتأهَّبُ للفرَارِ..

كانَ الأربعــةُ الآخــرونَ الذِينَ تَناولُوا العشَــاءَ مَعِى قَــدِ انْصَرَفُوا، فتركَنِى الشيخُ وحْدِى ودَخَلَ لحظَاتٍ إلىَ غُرَفِ دَارِهِ الدَّاخِليةِ، ثُمَّ عَادَ يجْلِسُ بِجِوَارِى صَامِتًا حتَّى فاجَأَنِى بالسُّؤَالِ..

وَجَاءَنِى صَوْتُهُ الهَادِئُ: «أَنَا أَعْرِفُ شُعورَ مَنْ تُطارِدُهُ الجَوَاسِيسُ.. يَصْعُبُ عليهِ التفرقةُ بينَ العَدُوِّ وَالصَّدِيقِ !».

مَا الذِى جَعلَهُ يتحدَّثُ عنِ الجَوَاسِيسِ؟!.

نَدِمْتُ عَلَى تَسرُّعِى الّذِى كَادَ يكشفُ أمرِى..

وتوقَّفْتُ فِى مَكَانِى أُسَــدِّدُ بصَرِى إلِىَ وَجهِهِ الَّذِى لَمْ يظهرْ عليهِ أىُّ انفعَالٍ، مُحَاوِلاً قراءَةَ مَا يَخْتفِى مِنْ أسرَارٍ خَلْفَ مَلاَمِحِهِ الَّتِى تَفيضُ بالسَّمَاحَةِ والاطْمِئْنَانِ .



عِندَئذٍ تذكَّرْتُ أَنَّ الهجُومَ أفضَلُ وَسِيلةٍ للِّدفاع، فقلْتُ وقَدْ تناسَيْتُ ألفاظَ التفخيم والمجاملةِ , ولعلِّى وجدْتُهُ قدْ بَدَأَ يُعَاملُنى باعْتبارى ندًّا لَهُ : «بل أنْتَ الذى تُخفِى سرًّا يجعلُكَ تدْعُو إلىَ بيتِكَ مَنْ تظنُّهم يهربُونَ مِنَ الجواسيسِ!».

ضحكَ فى ودٍّ ليردَّ الاطمئنانَ إلىَ قَلْبى :

«ليسَ ظنًّا.. صمتُكَ وحذرُكَ وأسلوبُكَ فى التفكيرِ والحَدِيثِ، وطريقةُ تناولِكَ الطعامَ، كلُّ هَذَا أكَّدَ لِى أنكَ صاحبُ مكانَةٍ عَاليَةٍ , اضطرَّتْكَ أَسْبَابٌ إلى التَّخفِّى والهَربِ.. أمَّا الشَّيْخُ عبدُ المُؤمِنِ فَهُوَ صَاحِبُ فراسَةٍ اسْتَطَاعَ بهَا أنْ يقرأَ فِى وجهِكَ وَتَصرُّفاتِكَ أَهَمَّ أسرَارِكَ، لِذَلِكَ أَرْسَلَكَ إِلىَ دَارِى!».







لَمْ أستطِعْ حَسْمَ تردُّدِى..

هَلْ أتركُ الشيخَ وأسرعُ بالفِرارِ لأختفِىَ بينَ جُموعِ النَّاسِ فِى دمشقَ، أم أتريَّثُ لأصِلَ إلى سِرِّ سُؤالِهِ عَنِ الزوجَةِ والأبْنَاءِ؟.

بَلْ شغلَتْنِى الرَّغبةُ فِى الوصُولِ إلى سِرِّهِ هُوَ، وهلْ يعمَلُ لحمَايةِ المَظْلومينَ أم يساعدُ مَنْ ظلمُوهُم؟!.

مُقامَرةٌ خَطِيرةٌ، لكنَّ دافعًا قويًّا ألَحَّ عَلَىّ لأكتشِفَ مَا الَّذى يَعْرِفُهُ عنِّى، بغَيْرِ أنْ أسمحَ لهُ بالوصُولِ إلَى مَزيدٍ مِنَ الحَقائقِ حَوْلَ حَيَاتِى!.

كانَ عَدَمُ الاطمئنانِ والحَذرُ والشَّكُّ، كلُّ هَذا يمْنعُنا مِنَ المُصارَحَةِ..

أخِيرًا قالَ: «إذا كُنْتَ أنتَ حقًّا مَنْ أبحَثُ عنه، فلعلَّ أقصرَ طريقٍ لِكَىْ تثقَ بِى أنْ أحْكِىَ لكَ قِصَّتِى الَّتِى لمْ يسْمعْهَا منِّى أحدٌ قبلَكَ، فقدْ تكُونُ بشخصِكَ أحَدَ أطرَافِ هَذِه القصَّةِ!».

٨ أن تبقَى الأمورُ سِرًّا

بدأ الشَّيْخُ حِكَايتَهُ قَائِلاً: «عَمِلْتُ أَمِينَ سِرِّ الوَزِيرِ «نعمَان السُّليمَانِى» ووكيلاً لهُ عندمَا كانَ وزيرًا لوالدِ السُّلْطانِ الحَالِى فِى بغدادَ.. كلُّ أسرَارِهِ عِنْدِى وَأَتولَّى بنفْسِى تنفِيذَ مُعْظَمِ المَهَامِّ الَّتِى يكلِّفُهُ بِهَا السلطَانُ.





وَكَانَ يُكلِّفُنِـى أحيَانًـا بتنفِيذِ بعْضِ الأوامِرِ الَّتِـى لاَ يرْضَى عَنْهَا، عِنْدَئذٍ يغمِضُ عينَيْهِ عَنْ «طريقَةِ تنفيذِى» لهَا، وَيترك لِى أنْ «أحْسِنَ التَّصرُّفَ» لأمنعَ وقُوعَ ظلم فَادِحٍ عَلَى بعْضِ النَّاسِ.

شَرطُ الوزير نعمَان الوَحِيدُ أَنْ تبقَى مثِلُ هَذِه «التصرفَاتِ» سِرًّا بيننَا لا يعرِفُهُ ثالثٌ!..

كانَ يهمِسُ لِى فِى تأكِيدٍ مرّةً بعدَ أُخْرى: «سَتَتحَّملُ وحْدَكَ نتائجَ أَيَّةِ مُخالَفَةٍ، فَفِى كلِّ الأحوَالِ أنَا لَمْ أَطْلبْ مِنكَ إلاَّ الطَّاعَةَ المُطلَقةَ!».

وَبقدْرِ الخُطَورةِ البالغَةِ لهَذَا الَّذى كُنْتُ أقُومُ به، والَّتى قَدْ تصِلُ إلى حدِّ الإطاحَةِ برأسى، فإنَّ تحْقِيقَ بعضِ العَدالَةِ أحيَانًا، وحمايَةَ بَرِىءٍ مِنَ الظلْمِ فِى أحيَانٍ أُخْرى، كانَ هُوَ مَا يجعَلُ لحيَاتِى مَعْنًى وَهدَفًا.

٩ لكى لا يُثيرَ التعاطُفُ ثائرةَ الناسِ

ذَاتَ ليلَةٍ عَادَ الوزِيرُ ومعَهُ عَربَةٌ مُقفلَةٌ دخَلَ بهَا فِناءَ دارِهِ، فتحْناهَا بهـدُوءٍ ثُمَّ تعاونَّا لنُخـرِجَ منهَا رجُلاً مُغطَّى الوجْهِ مُقيَّدًا بالسَّلاَسِـلِ وَالأغْـلاَلِ.. أخذْنـاهُ إلَـى غرفَـةٍ جَانبيَّـةٍ صَغيـرةٍ أغلَقْناهَا عليْهِ، لِكَيْ لاَ يعرِفَ أحدٌ مِنْ أَهْلِ البيتِ أَوِ العامِلينَ فِيهِ خَبَرَ وُجُودِهِ.



هَمَسَ الوزيرُ: «هذَا هُوَ أَبُو الفضْلِ الدينارىُّ» أمينُ دِيوَانِ بيتِ المَالِ، سلَّمَهُ لِى السلطانُ لأحفظَهُ سِرًّا فِى بَيْتِى وَتَحْتَ رِقابتِى إلَى الغدِ حتَّى يفْصِلَ فِى أَمرِه، وأظُنُّ نِهايتَهُ لَنْ تتأخَّرَ عَنْ صَباحِ اليومِ الجَدِيدِ!.»

هُنَا توقَّفَ الشيخُ عَنْ حِكَايتِه ليقولَ لى: «الدينارىُّ كانَ مِنْ أَقربِ أَصْدقَائى، أثِقُ أنهُ مِنْ أكثَرِ النَّاسِ نَزَاهةً ومُحَافَظةً عَلَى خَزائنِ بيتِ المَالِ، وَرِثَ عَنْ وَالدِهِ أموالاً طَائلةً لا تقعُ تحتَ الحصْرِ تُغنيهِ عَنِ الحَاجَةِ لطلَبِ المَزيدِ، وتجعَلُ تلاعُبَهُ بِمُمْتلكَاتِ بيتِ المالِ أمرًا يَسْتَحِيلُ التفكيرُ فيهِ. وحَتَّى الآنَ لا أفهَمُ لماذا قَبِلَ تلكَ الوظيفَةَ المحفوفَةَ بالمَخَاطرِ وحسَدِ الحاسِدِينَ، لكنهُ سِحْرُ المنْصِبِ وإغْرَاءُ السُّلْطَةِ، فاسْمَعْ مَا أصابَهُ مِنَ المنْصِبِ وَالسُّلطَانِ!!».

وعادَ الشيخُ إلَى حِكَايته، فقال إنَّ الوزيرَ نُعمان قالَ لهُ: «لِسُوءِ حَظِّ الدينارىِّ، عَرفَ الحاسِدُونَ الوُشَاةُ أنهُ لَمْ يُثْبتْ كلَّ مَا وَرِثَهُ عَنْ وَالدِهِ فِى الإعْلَامِ الشَّرْعِىِّ الَّذِى اسْتَصْدرَهُ مِنَ القاضِى بَعْدَ مَوْتِ وَالدِهِ، فقدْ حَدَثَتِ الوفَاةُ قبلَ تَعْيينِهِ أمينًا لدِيوَانِ بيتِ المَالِ، وَلَمْ يطُفْ بخَاطرِهِ أنَّ إثباتَ كُلِّ التِّرْكَةِ فِى وَثيقةٍ أمامَ القَاضِى سَيَحْميهِ فِى المُسْتقبلِ مِنْ وِشَايةِ الوُشَاةِ.

ولَمْ يكُنْ هَذَا إهمَالاً مِنْهُ، فمعظَمُ النَّاسِ لا يُبيِّنُونَ فِى تلكَ المُسْتندَاتِ الشَّرْعيّةِ إلاَّ «العقَارَاتِ الثَّابتَةَ» مثلَ البيُوتِ والأرَاضِى، التِى تحتَاجُ عندَ بيعِهَا فِى المُسْتقبلِ إلَى وَثيقَةٍ تُؤكدُ مِلْكِيتَهم لَهَا عَنْ طَرِيقِ المِيرَاثِ.

وَفُوجِئَ الدينارِىُّ بالسُّلطَانِ يَسْتدْعيهِ ذَاتَ يومٍ مِنْ بيتِهِ بَعْدَ

حُلـولِ ظَلَام اللَّيْلِ وَيُواجِهُـهُ باتِّهام خَطير.. قَالَ لهُ مُتوعِّدًا: «بلغَنِى أنكَ تُخفِى فِى أماكنَ سِرِّيةً مِنْ داركَ مَبالغَ طَائِلةً تخصُّ بيتَ المَالِ».

أُصيبَ الدينارىُّ بصدْمَةٍ عند سَـماعِهِ هَـذَا الاتهَام الَّذِى هُوَ أبعَدُ مَا يكُونُ عَنْه، فقالَ فِى ثِقَةٍ: «كلُّ مبلَغ دخَلَ بيتَ المَالِ مرصُودٌ فِى دَفَاترِهِ، وكلُّ مبلَغ خرَجَ مِنْ خَزائِنِهِ مُبيَّنٌ أمامَهُ فِى السِّـجلاَّتِ اسْـمُ المَسْئُولِ الَّذى أمرَ بصرفِهِ وبياناتٌ عَن الشخْصِ الَّذى قَبضَهُ وتَسلَّمَهُ».

قالَ السلطانُ وقدْ ملأَ الوُشَـاةُ ذِهنَهُ بالأكَاذِيبِ: «التزويرُ فِى دَفَاترِ بيْتِ المَالِ مُشْـكلة اسـتْعصَتْ عَلَى الرُّقَبَاءِ.. عَليْكَ أَنْ تُسلِّمَ فورًا إِلىَ بيتِ المَالِ كلَّ مَا تُخْفيهِ مِنْ أموَالٍ!».

فِى ثباتٍ قالَ الدينارىُّ: «بلْ هِىَ أموالٌ وَرِثْتُها عَنْ وَالدِى!».

سَـألَهُ السُّلطانُ: «هَلْ كلُّ مَا ورِثتَهُ ثابتٌ فِى حُجَّةِ التِّرْكَةِ الشَّرْعيَّةِ الصَّادرةِ عَنْ أحدِ القُضاةِ الَّذين أصدَرْنا أمرَنَا بتَعيِيْنهِمْ؟».



هُنَـا أدرَكَ الدينـارِىُّ الحفرَةَ الَّتِى حفروهَا لَهُ، فَهُـو لمْ يُثبتْ فِى الوَثيقَةِ الرسْـميَّةِ الشَّـرْعيةِ، «الأموالَ السَّـائلَةَ» مِـنْ دنانيرَ وَذهَب ومُجَوْهراتٍ وغيرِهَا مِنَ «المنقولاَتِ» الثَّمينَةِ، وَهِىَ شىءٌ كَثِيرٌ جدًّا.

لذلكَ عندمَا فُوجِئَ بالسُّؤالِ تردَّدَ وَتَلَعْثَمَ أمامَ السلطَانِ!.

وَخَتَمَ الوزيرُ نعمَانُ حِكايتَهُ قائلاً:

«عندئِذٍ أمَرَ السلطَانُ بوَضْعِ القُيُودِ فِى يَدَىِ الدينارِىِّ وَقَدَمَيْهِ».

كانَتْ سُمعَةُ الدينارِىِّ تملأُ البلدَ كلَّهُ، فَقَدْ عرفَهُ الناسُ لا يتأخَّرُ فِى اسـتصْدَارِ الأوامرِ لإغاثَةِ أىِّ مَلْهوفٍ، بلْ كثيرًا مَا يُعطِى المُحتاجِينَ بسخَاءٍ مِنْ مالِهِ الخَاصِّ، فَتناقَلَ الناسُ أخبارَ فَضْلِهِ وكرمِهِ.

وَبِسَبَبِ هَذه السُّمعَةِ الطَّيبةِ، أَضَافَ الوزيرُ:

«وَخشـيَةَ أنْ يُثيرَ التعاطفُ معَهُ ثائرَةَ النَّاسِ، طلَبَ مِنِّى السـلطانُ المُحَافظَةَ عَلَى وَاقعةِ القبْضِ عليْهِ سِرًّا لاَ أُطْلِعُ عليْهِ أَحَدًا، لذلكَ وضَعْتُ الرجُلَ فِى تلكَ الغُرفَةِ المنعزِلَةِ، وَسَـتكونُ أنتَ شَخْصِيًّا حَارِسَهُ فيهَا حَتَّى الصَّباحِ!».

كانَـتْ تلكَ إحْـدَى المرَّاتِ الَّتِـى يُكلِّفُنى فيهَا الوَزيـرُ بمثلِ هَذِهِ المَسئُوليةِ الخَطيرَةِ الحسَّاسَةِ، لكنهَا تعلَّقَتْ هَذِهِ المرَّةَ بشخصٍ أحبُّهُ وَأَحْترِمُهُ، فهوَ مِنَ الأصْدقَـاءِ الأعِزَّاءِ، لذلكَ لَمْ يُغمِضْ لِى جَفْنٌ طِوالَ اللَّيْـلِ وَأنَا أفكِّرُ فِى مَدَى الظُّلمِ الَّذِى سَـيقَعُ عليْـهِ، أتأمَّلُ وَجْهَهُ وقدِ التزمَ الصَّمتَ تمامًا ..

كانَ مُصابًا بصدْمةٍ قَاسيةٍ لاَ يستطِيعُ الإفاقَةَ منهَا!.

١٠ تَحايَلْ حتَّى تستأجرَ البَيْتَ

عَرفْنَا فى الصَّباحِ خبرَ اقتْحام جُنْدِ السلطَانِ جميعَ بيُوتِ الدينارِىِّ، وَأنُـهمْ فَتَّشوهَا وَصَادَرُوا كلَّ مَا عَثَروا عَليْهِ مِنْ ثروَةٍ وأموَالٍ.

وَأَذاعَ رِجَـالُ السـلطَانِ حِكَايةً عنْ هَـربِ الدينـارِىِّ عندمَا عَرَفَ بانكشَافِ أَمْرِهِ.

وَفى نفْـسِ الوقْتِ أمرَ السـلطانُ الوزيرَ نعَمان بالتخلُّصِ سـرًّا منَ الدينـارِىِّ كىْ لاَ يعرفَ أَحَدٌ مَصيـرَهُ، لتفادِى قيام فتنَةٍ ولمنْعِ الناسِ مِنَ الثَّوْرةِ بسببِهِ. وَكلَّفنِى الوزيرُ بتنفيذِ هَذا الأمْرَ الظَّالمِ الجَدِيدِ!.





وَفِي مثْلِ هَذِهِ الأَحْوَالِ، كانُوا يربطُونَ حجَرًا ثقيلَ الوَزْنِ إلىَ قَدَمَي الضَّحيَّـةِ، ثُمَّ يُلْقُونَ بِهِ سـرًّا تَحْتَ جُنْحِ الظَّلام فـى نَهْرِ دِجْلَةَ، وَهُمْ وَاثِقُونَ أَنَّ الأسماكَ ستَمْحو مَلامِحَهُ خِلاَلَ أيام.

وَفِي المسَاءِ أبلغْتُ الوزيرَ بتنفِيذِ الأَمْرِ.

وكنتُ أمامَ مثلِ هَذِهِ الأوامرِ غَيْرِ العَادِلَةِ، أَسْـعَى لتهْريبِ الضَّحيَّةِ سِـرًّا إلى مِصرَ، بشرطِ أنْ ينسَـى الناجِى بَحياتِهِ مَاضِيَهُ كلَّهُ وَيعيش تَحْتَ اسم مُختلِفٍ وَفِي شَخْصيَّةٍ جَدِيدَةٍ.

أَمَّا الدينَارِيُّ فقدْ كَانَ أشـهرَ مِنْ قُدْرَتِي عَلَى إخْفَاءِ أَمْرِهِ عَنِ الحُكَّام فِـي مِصْرَ، لَذلكَ عَمِلْتُ عَلَى تَهرْيبِهِ إِلـىَ ضَيْعةٍ لِي بَعِيدَةٍ عَنْ بغدادَ، أهلُها فلاَّحونَ لا يُمَارسُـونَ إلاَّ زِرَاعَةَ الأرْضِ وَيجْهلُونَ كُلَّ شَـيءٍ عَنْ أُمورِ السِّيَاسَةِ والحُكْم وَلَا يُلقونَ بَالاً لأخبَارِ رجَالِ السُّلْطَةِ.

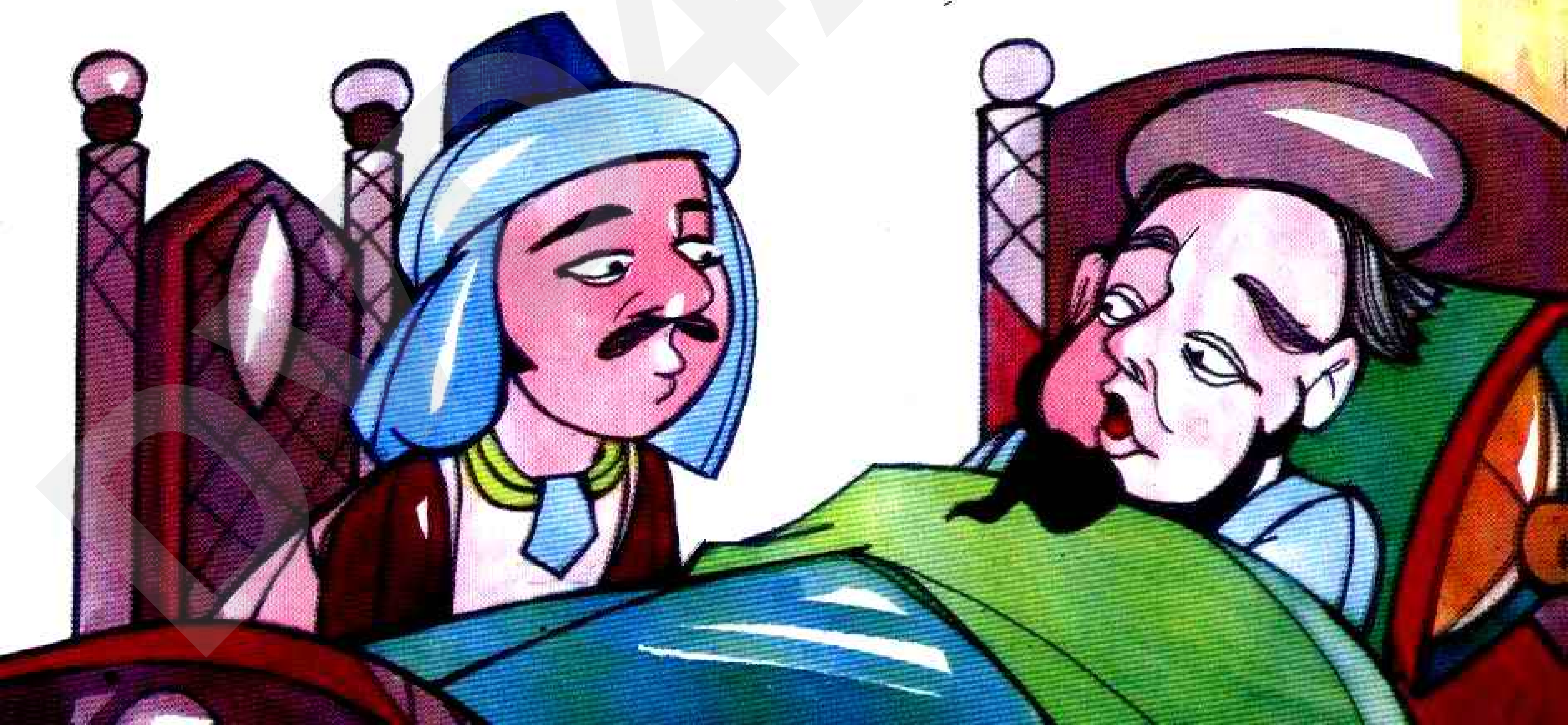
وَكنتُ أدبِّرُ أمرَ إرسَـالِهِ إلىَ بلادِ الهندِ أَوِ فَارِسَ؛ ليبتعدَ تمامًا عَنْ عُيُونِ رجَالِ السـلطَانِ، لكنَّه ظلَّ صَامِتًا فِي ضَيْعَتِي لاَ يغَادِرُ فراشَهُ إلاَّ نادِرًا، إلىَ أنْ أصابَهُ مرضُ الفَالِجِ بشللٍ منعَهُ مِنَ الحَرَكَةِ.

وَبَقِىَ شُهُورًا طَويلةً طَريحَ الفِراش، كنتُ خلالَها أقُومُ بتمْريضِهِ بنَفْسى كُلَّمَا سافرْتُ إلَى ضَيْعتِى، بَلْ أكثرْتُ مِنَ الترددِ عليهَا لأشرفَ بنفْسى عَلى احْتياجَاتِهِ؛ كَىْ أخفف وَلَوْ قليلاً مِنْ مرارةِ إحسَاسِهِ بالظلم الشَّدِيدِ؛ وحتَّى أعِيدَ إليهِ الثقَةَ فِى أنَّ هناك مَنْ لا يشكُّ فِى بَرَاءتِهِ، وَأنَّ المجْتمعَ بِهِ شُجعَانٌ عَلَى اسْتعدَادٍ للوُقُوفِ ضِدَّ الظُّلم.

لَكنَّ كُلَّ مَا فَعلْتُهُ لَمْ يمْنع اسْتِمْرَارَ انهيَارِ صحتِهِ.

وعندمَا شعرَ باقتراب نِهَايتِهِ، اسْتَدْعانى وقالَ فِى كلمَات مُتقطِّعةٍ فهمْتُهَا بصُعُوبةٍ: «لا شَكَّ أنَّ جنودَ السلطَانِ قَدْ فتَّشُوا كُلَّ بُيُوتِى وَحَفَروا أرضَها وخَرَّبوا حِيطَانَهَا بحثًا عَنْ أمْوَالِى الَّتِى ورثْتُهَا عَنْ وَالِدِى، لكنهُم لا يعرفُونَ الطَّريقَ إلى بَيْتٍ صَغير لَمْ أكُنْ أذهَبُ إليهِ إلاَّ مُتخَفِّيًا مُتنكِّرًا. لَمْ يكُنْ ضِمْنَ أملاَكِى فقدِ اسْتأجرْتُهُ تحْتَ اسم مُستعَارٍ لأتفادَى الإفصَاحَ عَنِ اسْمِى الحَقيقِىِّ فِى حَالةِ إتمَامِ عقْدِ شراءِ ذلكَ البيتِ أمامَ شُهودٍ».

ثُمَّ أعطانى عنوانَ البيْتِ فِى إحْدَى ضَوَاحِى بغدادَ، وذكرَ أنَّهُ يُطِلُّ عَلَى نَهْرِ دِجْلَةَ، وقدْ سَاعدَهُ هَذا أنْ يذهَب إليهِ عَنْ طَرِيقِ القَوَارِبِ النهريَّةِ بغَيْرِ أنْ يَضطرَّ إلَى اسْتخْدَامِ حِصَانِهِ والسَّيْرِ بِهِ فِى شَوَارِعِ بغدادَ، فتفادَى جَذْبَ الأنظارِ.



وَأضَافَ الديناريُّ: «عندمَا أذهَبُ للقاءِ رَبِّى، تَوَجَّهْ إلَى تِلْكَ الضَّاحيةِ، وتَحايَلْ حَتَّى تَسْتَأْجرَ ذلكَ البيْتَ. وَفِى أصْغرِ غُرفةٍ منْهُ، وَهىَ الوحِيدَةُ الَّتِى بغيْرِ نَوَافذَ، احْفرْ بجوَارِ حَائطِهَا الشَّرْقِىِّ.. إنَّه بعيدٌ عَنِ الطَّريق فلَنْ يسمَعَ أحدٌ صَوْتَ الحَفرِ. وعِنْدَ عُمْقِ قَامَةِ الإنسَانِ سَتجدُ صُندُوقًا مِنْ حَديدٍ، ذلكَ أننِى تَحَسُّبًا لتقلبَاتِ الأَيَّام، جمعْتُ فيه جزءًا كبيرًا مِنَ الثروةِ الَّتِى ورِثْتُها عَنْ أَبى والَّتِى تَلقَّاها هوَ عَنْ أَجْدادِه».

وَخَتَمَ حَدِيثَهُ قائلاً: «ليسَ لِى زوجَةٌ وَلاَ أبنَاءٌ وَلاَ أملٌ فِى أَنْ أبرأَ مِنْ مَرَضِى، لذلكَ أتركُ لكَ هَذِه الثروةَ كُلَّهَا.. لَنْ أنسَى أَبَدًا أنكَ حَفظْتَ حَيَاتِى وَبَذَلْتَ مَا اسْتطعْتَ للعنَايَةِ بى وَالتَّخْفيفِ عَنِّى، مُعَرِّضًا نفسَكَ لأشَدِّ الأخطَارِ، وبذلكَ أصْبَحْتَ أفضلَ مِنْ صَدِيقٍ وأقربَ مِنَ ابنٍ.. ثُمَّ أضَافَ: «ولمَّا كُنتُ قَدْ حلمْتُ دائمًا أَنْ يكونَ لِى خمسَةٌ مِنَ الأبنَاءِ، فإنَّ لِى شَرْطًا واحِدًا: أَنْ تُطْعِمَ مَسَاءَ كلِّ يَوم خمسَةً يكونُونَ فِى حَاجَةٍ إلَى الطَّعَام، لَعَلِّى أُواصِلُ بعْدَ رحيلِى مَا نذرْتُهُ خِلاَلَ حَياتِى مِنْ صُنْعِ الخَيْرِ ما اسْتَطَعْتُ».



١١ تُريدُ هَدْمَ البيتِ

بعـدَ رَحيلِ الدينارى للقَـاءِ ربِّهِ، لَمْ أَجِدْ صُعُوبةً فِـى العُثُورِ عَلَى البيـتِ بضَاحيَةِ بغدادَ، لكِنْ أصابَنِى الفـزَعُ عندَمَا عرفْتُ أنَّ صَاحبتَهُ تعتـزمُ هَدْمَهُ. فعندَمَا وَجدَتِ المَالكَةُ أنَّ مُسْـتأجرَ بيتِهَا قَدِ اختفَى، ومضَتْ شهورٌ لاَ يُعْطيهَا الأُجرَةَ ولاَ يُرسِلُها إليهَا، قرَّرَتْ هَدْمَ البيتِ وإعادةَ بنائِه مِنْ جَدِيدٍ، بعدَ أن اسـتوفَتِ الأجرَةَ أمامَ شـهودٍ ببَيْعِ مَا تركَهُ المُستَأْجِرُ فِى البيْتِ مِنْ أَثَاثٍ.



ارتفعَـتْ صيحَةٌ مِنْ أَعْمَاقِـى حَافِلَةً بالقَلَق: «سَـتَضِيعُ معَالِمُ مكَانِ الكَنْزِ! «بَلْ خَشِـيتُ أيضًا مَا قَدْ يحدُثُ عند حفْرِ أَسَاسَـاتِ البيْتِ مِنْ جَدِيدٍ، فقدْ يعثرُ العمَّالُ عَلى صُنْدوقِ الثروَةِ ويستولونَ عليْهِ.

قرَّرْتُ التحرُّكَ بسـرعَةٍ، مَعَ الحِرْصِ أَنْ تكُونَ خُطوَاتِى مَحْسُـوبةً بدقَّةٍ كَىْ لاَ يكتشفَ أحدٌ لهفَتِى عَلَى اسْتِئْجَارِ البيْتِ.

عرفْـتُ أنَّ المالكةَ سـيِّدةٌ تَعِيـشُ وَحِيدةً بعدَ وفَـاةِ زَوْجِهَا وتَفَرُّقِ أولادِهَا، تعتمدُ فِى مَعَاشِهَا عَلَى مَا تحصُلُ عليهِ منْ أُجْرةِ البيْتِ.

قلْـتُ لَهَا: «أنَا مِنْ بغدادَ.. أريدُ اسـتئجَارَ بيتِكِ لأقضِىَ فيهِ بَعْضَ الوقْتِ بَعِيدًا عَنِ العَاصِمَةِ».

قالَتْ باختصَارٍ وَفِى تَصْمِيم: «بعدَ أَنْ أُعيدَ بناءَهُ».

قلْـتُ فِى صَبْرٍ: «حَالَةُ البيْـتِ جَيِّدةٌ حَتَّـى إِذَا كَانَ فِى حَاجَةٍ إلَى بعْضِ الترمِيمَاتِ.. خسـارةٌ هَدمُه وإنفَاقُ الكَثِيـرِ عَلَى إِعَادَةِ البِنَاءِ!.

«شاوَرَتْ نفسَها وَسَألَتْ: «كمْ تدْفَعُ إيجَارًا لَهُ؟».



وَلَمَّـا كَانَ هدفُهَـا الحُصُول عَلَى أُجْرةٍ أكبرَ، فقدْ سَـأَلتُهَا بِدَورى: «وكَمْ تتوقَّعينَ أُجْرتَهُ بعدَ أنْ تُعيدِى البناءَ؟».

قالَتْ: «ثلاثةَ دنانيرَ كُلَّ شهرٍ».

كانَ البيــتُ بحَالتِهِ التِى رأَيْتُه عليهَا لن يســتأجرَهُ أحدٌ بأكثرَ مِنْ نِصْفِ دينارٍ، وَخَشــيتُ إذَا وافقْتُ عَلَى دفــعِ الدَّنانيرِ الثَّلاثَةِ أَنْ أُثيرَ شــكوكَهَا. قُلْتُ مُعترضًا لَكنْ فِى رِفْــق: «هَذه أجرةٌ مُرْتفعةٌ جِدًّا لمثْلِ هَذَا البيتِ الَّذِى يحتَاجُ إلَى كثيرٍ مِنَ الإصْلاَحِ والتَّرْميم».

قالَتْ فِى غيرِ اكْترَاثٍ: «قلْتُ لكَ انتظِرْ حَتَّى أُعيدَ البِناءَ».

وأردْتُ إنهَــاءَ المسَــاومَةِ فقلْتُ: «سَــأعطِيكَ دِينارًا كامِــلاً عَنْ كلِّ شَهْرٍ».

صَاحَتْ تُنذِرُنى: «وَلَنْ أُنفِقَ درهَمًا واحِدًا عَلَى إصْلاحِهِ!».

كتَمْتُ شُعُورِى بالراحَةِ، وقلْتُ كأنَما أنَا الخَاسِرُ فِى هَذِه المَساومةِ معَ أَنَّ قيامِى بالترميمِ يتَّفِقُ تمامًا مَعَ أهْدَافِى:

«وَسأقومُ بكلِّ مَا يلزَمُ البيتَ مِنْ إصْلاَحٍ».

فَاجَــأَ عرضِى السَّــخِىُّ المرأةَ فَــزالَ تَردُّدُهَا وَوافقَــتْ وَهِىَ تَقُولُ: «وأرجُو أَنْ يطولَ بقاؤكَ فيهِ، وَألاَّ تختفِىَ فَجْأةً بغيرِ دَفْعِ ما عليْكَ مِنْ أُجْرةٍ مثلَمَا فعلَ المُسْتأجِرُ السَّابِقُ!».



١٢ ثروةٌ تحتَ الأرضِ

استخدمْتُ صَنَاديقَ كَبِيرةً لأنقلَ فِيهَا مَا يحتاجُ إليهِ بَيْتُ الضَّاحيةِ مِنْ أَثَاثٍ وَمفْروشَاتٍ.

وتمَّ النقْلُ عَنْ طريقِ قوارِبَ يَسْتأْجرُهَا مَنْ يستخْدِمُونَ نهرَ دجلةَ للسفَرِ، ووصَلْنا بهَا إلَى الشَّاطِئِ أمامَ بيتِى الجَدِيدِ.

وَشَاهَدَ الجيرانُ صَنَاديقَ جَارِهم الجَدِيدِ فلَمْ يُثِرْ ذلكَ انتبَاهَ أَحَدٍ، فمِنَ المعتَادِ أَنْ ينقلَ الساكنُ الجَدِيدُ مَا يحتَاجُ إليهِ فِى صَنَادِيقَ عَلَى ظَهْرِ السُّفُنِ النهريَّةِ.

وَبَعْدَئِذٍ وَاجهَتْنى المُشْكلةُ الرئيسِيَّةُ...



لَقَد عرضْتُ القيَامَ بأعمَالِ الترميم لِكَىْ لا تُسبِّبَ رُؤْيةُ آلاتِ الحفْرِ أوْ سمَاعُ صوتِهَا وأنا أشتغِلُ بهَا أىَّ نوعٍ مِنَ التساؤلاتِ، لكنَّ هَذَا يتطلَّبُ تكليفَ بَعْضِ العمَّالِ للبدْءِ فِى أعمَالِ إصلاَح البيتِ، وَفِى نفسِ الوقتِ أقومُ وحْدِى بغير معونةٍ من أحدٍ بالحفرِ لاستخراج الصندوقِ المَخْبوءِ.

لَمْ يكُنْ هناكَ مَفَرٌّ مِنَ الاسْتفادَةِ بفترةِ مَا بعدَ الغُرُوبِ عندمَا ينصرِفُ العُمَّالُ، فأقُومُ بالحفْرِ مَعَ أقلِّ مَا أَسْتطِيعُ مِنْ ضَجَّةٍ.

بدأْتُ الحفْرَ بجوَارِ الجدَارِ الشَّرقىِّ للغرفَةِ الصَّغيرةِ التِى لاَ نوافذَ لَهَا، وأَرْهقَنى العمَلُ فِى اليوْمِ الأولِ فلَمْ أسْتطِعْ مُواصلتَهُ إلاَّ سَاعَاتٍ قَلِيلَةً.

وَفِى اللَّيلَةِ التَّاليَةِ سَمِعْتُ الفأسَ تَطرقُ سَطْحًا مَعْدنيًّا، فعرفْتُ أننِى لَمْ أُخطِئِ الطَّرِيقَ إلىَ هَدفِى.

وعندمَا اسْتطعْتُ أخِيرًا كَشْفَ سطْحِ الصُّندوقِ، وَجَدْتُ مِسَاحتَهُ كَبِيرَةً تدلُّ عَلَى حجْمِهِ الكَبِيرِ.

وبعدَ محاولاَتٍ شَاقَّةٍ لإزالَةِ الصَّدأ المُترَاكِمِ، نجحْتُ فِى رَفْعِ الغِطَاءِ.. وَشهقْتُ!!..

لَمْ يكُنْ صُندُوقًا، بَلْ غُرفةً كَامِلةً امتلأَتْ حَتَّى حافتِهَا بِمَا يتلألأُ

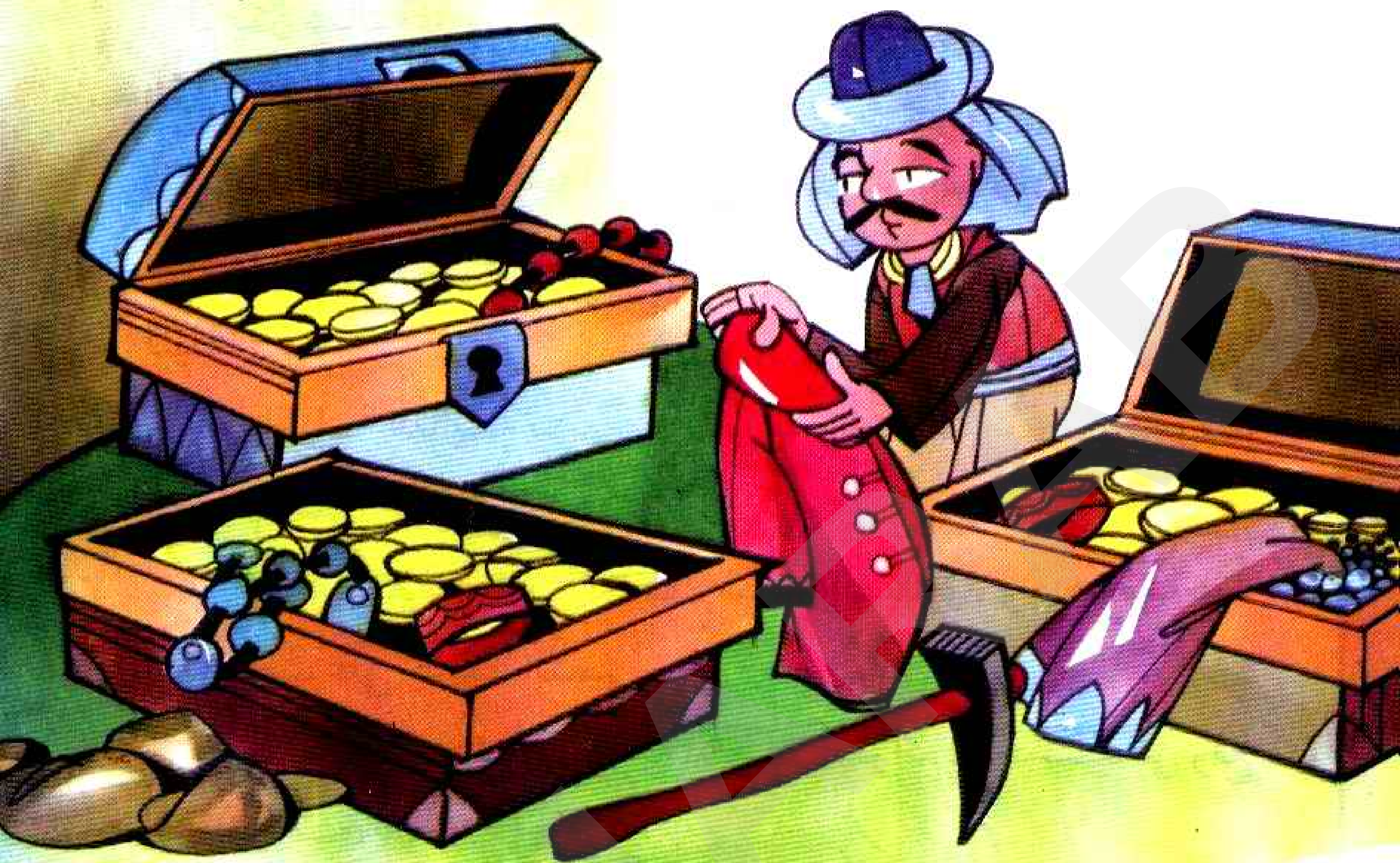


ويسطعُ ويلمَعُ.. ذهَبٌ.. مَاسٌ.. زُمُرَّدٌ.. يَاقُوتٌ.. لُؤْلُؤٌ..

كميَّاتٌ هَائِلةٌ.. أكبرُ كثيرًا مِنْ أَقْصَى توقُّعَاتِي..

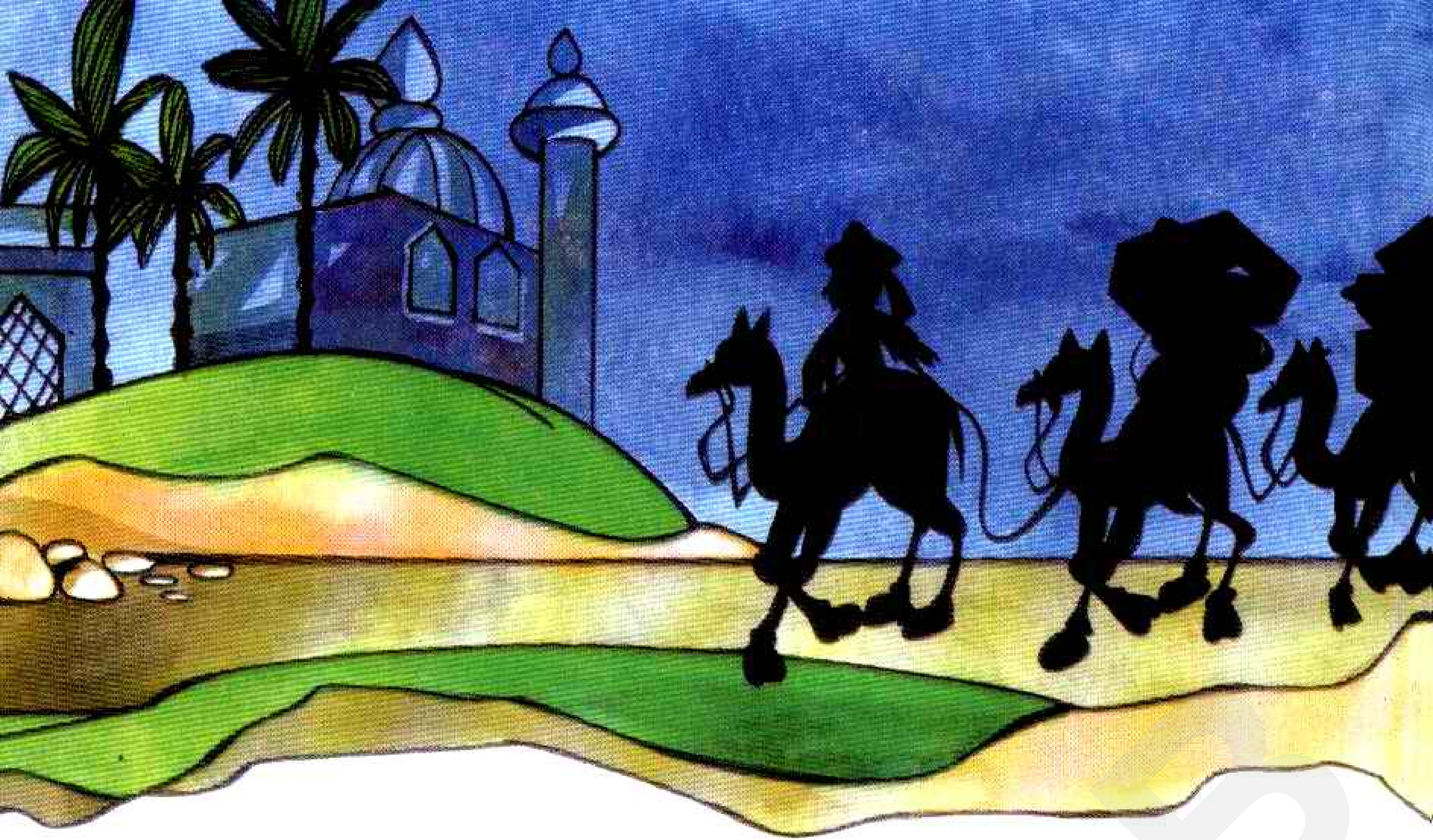
وَحزمْتُ أمرِي بسرْعَةٍ: «هَذَا الصُّنْدوقُ لا يُمكِنُ رفعُهُ مِنْ مَكَانِهِ..»

وَفِي هُـدُوءٍ بدأْتُ أنقـلُ تلكَ الثـروَةَ الهَائلَةَ إلـىَ الصَّناديقِ التِي



أَحضرْتُ الأثاثَ دَاخلَهَا، ثُمَّ وضعْتُ فوقَ مَا مَلأتُ بِهِ كلَّ صُنْدوقٍ بَعْضَ الملاَبسِ، وَأغلقْتُهَا بإحْكَام.

وَعُدْتُ عَنْ طريقِ النهرِ إلَى بغدادَ وَمَعِي نَفْسُ الصَّنادِيقِ الَّتِي جِئْتُ بهَا، بغَيْرِ أَنْ أُثِيرَ أيةَ تَساؤلاَتٍ..



١٣ قافلةٌ إلى دمشقَ

أَصْبحَ بقَائى فِى بغدادَ مَحْفوفًا بالمَخَاطرِ.. سألْتُ نفسى: «كيفَ أَبيعُ مِنْ تلكَ الكُنُوزِ فِى أَسْواقِ بغدادَ بغَيْرِ أَنْ أُثيرَ الشُّبهَاتِ وَأنَا مِنْ أشهرِ شَخْصيَّاتِ المَدينةِ؟!».

كذَلكَ بدأَتْ مَخَاوِفِى تتزايَدُ خِشْيةَ أَنْ يكتَشفَ أَحَدُ الجَواسيسِ تَحَايُلِى عَلى بعضِ أَوامرِ السلطَانِ وعَدمَ تنفيذِهَا، فيضَعَ عُنُقِى تَحْتَ سيفِ الجلَّادِ! لذلكَ أذَعْتُ أخبَارًا عَنِ اعْتلالِ صِحَّتِى، وَطلبْتُ مِنَ الوَزيرِ إعفَائِى مِنْ منْصِبى، فاضْطُرَّ إلىَ تَرْكِ الحريَّةِ لِى فِى اخْتيَارِ الطَّريقَةِ الَّتِى أَقْضِى بهَا بقيةَ أيام حياتى.

وَأَسْرعْتُ أبِيعُ كلَّ مَا أملكُ، وَاسْتأجرْتُ قَافلةً وضعْتُ عَلَى ظُهورِ جمالهَا مَتَاعِى، وأخفيْتُ بينَ الكثيرِ الذِى أَخذْتُهُ معِى، الصَّناديقَ الَتِى حملتُهَا مِنْ بيتِ الضَّاحيةِ، وَجِئتُ إلِىَ دمشقَ.

١٤ تنتظرُكَ مفاجأةٌ أخرى

وكانَ الشيخُ صَاحِبُ الدَّارِ قَدْ حرَصَ علَى إبقَاءِ جُزْءٍ مِنْ قِصَّتِهِ إلِىَ النهايَةِ، فَاجَأنِى بِهِ عندمَا قَالَ:

«وقبلَ سَفرى مِنْ بغدادَ، عَرفْتُ أَنَّ رجلاً فاضِلاً اسمُهُ» عبدُ المُنْصِفِ الخضراوىُّ» قَدْ تَولَّى أَمانةَ دِيوانِ بيتِ المَالِ».

خَفقَ قَلْبِى بشدَّةٍ بينَ ضُلُوعى، فهَا هُوَ الشيخُ الجَليلُ صَاحِبُ البيتِ يَذكرُ اسْمِى، فَبَذلْتُ جُهْدًا خَارِقًا كَىْ أَسيْطِرَ عَلَى انفِعَالاَتِى حتَّى أستمِعَ إلِى بقيةِ حِكَايَتِهِ.. قالَ:

«عرفْتُ أَنَّ الخضراوىَّ راجَعَ كلَّ حِسَاباتِ الديوَانِ فى عهدِ سلفِهِ «أبو الفضل الدينارى»، فوجدَهَا دَقيقةً سَليمةً لا تشوبُهَا شَائِبةٌ.

وعندمَا أبلغَ الخضراوىُّ السلطَانَ بهذِهِ الحَقيقَةِ، قالَ السلْطَانُ له:

«اللهُ يرحَمُ الدينارىَّ، لَوْ ظلَّ حَيًّا لرددْتُ لهُ اعتبارَهُ، ولَوْ كانَ لهُ وَارِثٌ لأعدتُ إليه أموالَهُ، لكنَّهُ تُوفِّىَ بغيْرِ وَارثٍ».

ثُمَّ طلَبَ كتمَانَ الأمرِ مَا دَامَ لَنْ تتحقَّقَ فَائِدَةٌ مِنْ إذاعتِهِ، فوعَدَ الخضراوِىُّ بالكتمَانِ..





صحْـتُ فيـه وقَدْ بلغَـتْ بِـى الإثَـارَةُ أقْصَـى حُدُودِهَا : «لكِـنْ هَا أنـتَ تَحْكيـهِ ! ! .. كيفَ وصَـلَ إليكَ خَبـرُهُ وقَدْ كتمَهُ الخضـراوِىُّ عَنِ الجميعِ ؟ ! ».

ضَحِكَ الشـيخُ فِى هُدُوءٍ وهُوَ يقُـولُ : «بَلْ تنتظِرُكَ مُفَاجأةٌ أُخْرى : لَقَدْ سَمِعْتُهُ من زَوجَةِ الخضراوىِّ نفسِهَا ! ! ».

ولَمْ يتركْ لِى وقتًا لألقِىَ مزيدًا مِنَ الأسئلةِ وَقَدِ اشْتدَّتْ لهفَتِى وتزايَدَ انفِعَالِى ، فقدِ اتَّجَهَ نحوَ بابَ القاعَةِ وَفتحَهُ عَنْ آخرِهِ وهُوَ يقُولُ :

«حانَ الوقتُ لتدخُّلِى يا سيِّدتى ! ».

اندفعْتُ نحوَ زوجَتِى أعَانقُها وَأصيحُ : «ياسمين ! ».

وتعلَّقَـتِ ابنَتِى بثيابِى فرفعْتُها أضُمُّها معَ والدتِها والدُّموعُ تنهمِرُ مِنْ عَيْنى وَأنا أهْتِفُ بِكُلِّ الحُبِّ واللَّهفَةِ : «حَبِيبتِى بَسْمة ! »

١٥ أنتَ كابنٍ لى

انتظرَ الشيخُ حتَّى هَدَأَتِ انفعالاَتُ اللِّقاءِ المُفَاجِئِ الَّذِى مَا كَانَ يُمكِنُ توقُّعُهُ، وكنتُ أظنُّ قبلَ لحظاتٍ استحَالةَ حُدُوثِهِ فِى تلكَ السَّاعةِ وَفِى ذلِكَ المكَانِ، وأكمَلَ حكايتَهُ: عندمَا جئْتُ إلَى دمشقَ وَمَعِى الثروةُ كلُّهَا، اشترَيْتُ هذَا القصرَ لأستضِيفَ فيهِ كلَّ مساءٍ خمسَةً فِى حَاجةٍ إلَى طَعَام.

ومنذُ أَسابيعَ قليلَةٍ وصَلَتْ إلى دمشقَ سيِّدةٌ معَ ابنتِهَا، كانَ وَاضِحًا أنهَا مِنْ أُسرةٍ كَرِيمَةٍ ذاتِ مَكَانةٍ، لكنَّ كارثةً حلَّتْ بِهَا جعلَتْهَا تُهاجرُ إلَى هُنا بغيْرِ سَنَدٍ.



ومعَ تعوُّدِى اســتضَافةَ بعضِ الرجَالِ عَلى العشَاءِ فِى بَيْتِى، فإنَّنِى كثيرًا مَا أُرسِلُ النفقةَ التِى تحتاجُـهَا عَائلاتٌ أو سيداتٌ، فأخبرَنى أهْلُ الخَيْرِ بأمرِهَا. وَهكَذَا انتظمَتْ نفقتُـهَا تتسلَّمُها مِنْ تَابعِى بانتظَامٍ.

وزارَتْنى ذاتَ صَباحٍ لتشكرَنِى، فوثقَتْ بى كأنَنِى وَالدُهَا.

عندَئذٍ صَارَحتْنِى أنهَا زوجةُ الخضراوىِّ أمِينِ دِيوَانِ بيْتِ المَالِ، الذِى ارتكَبُوا ضِدَّهُ نفْسَ مَا وقعَ مِنْ ظُلمٍ عَلَى سَلفِهِ الدينارِىِّ، وأخبرَتْنِى عَنْ هُروبِهِ مِنْ بغدادَ لا تعرفُ إلى أَيْنَ، لكنهَا تُرجِّحُ مَجِيئَهُ إلىَ دمشقَ، وترجُو أَنْ يدلَّهُ أهلُ الخيرِ عَلَى قصْرى كَمَا أرشدوهَا هِىَ إليْه.

ومنــذُ يومَيْنِ نقلَ لى حَامِلُ بريدٍ قَادِمٌ مــنْ بغدادَ أخبارَ مَن اختارَهُ السلطَانُ لفحْصِ شُـئُونِ بيتِ المَالِ أثناءَ تولِّى الخضراوىِّ مَسْئُوليتَهُ، فقدِ انتَهى مِنْ مراجعَةِ السِّـجلاَّتِ والحسَاباتِ فوجدَهَا كلَّهَا سَلِيمةً، وَأمرَ السلطانُ بردِّ كلِّ أموالِكَ إليكَ».

تَضاعفَ شُـعورى بالراَحةِ، لكنَّ زوجَتِى يَاسمين سمِعَتْنى أَقُولُ فِى أَسَفٍ: «تظهرُ براءتِى، لكنْ بعدَ كلِّ مَا حَلَّ بِى ! !».

سألَنِى الشيخُ: «لعلَّكَ تُريدُ الآنَ العودَةَ إلَى بغدادَ؟».



قلتُ فِي غَيْرِ تردُّدٍ: «أَعُودُ عندمَا لاَ أجِدُ مَنْ يمنُعنِي مِنْ قَوْلِ الحَقِّ لكيْ يفوزَ هُوَ بالقُبولِ والنَّجَاح ! !».

ثُمَّ خفَّفْتُ من لَهْجَتِي وَأضفْتُ: «سأرسِلُ مَنْ يتسلَّمُ أموَالِي، ثُمَّ أَعودُ إلى بغدادَ عندمَا يُبعِدَ السلطانُ مِنْ حَاشيتِهِ كُلَّ الذِينَ يعملُونَ عَلَى إسَاءَةِ العلاَقَاتِ بيَنهُ وبينَ أَخْلص الرجَالِ لَهُ».

قالَ الشيخُ: «مَادمْتَ تختارُ فِي الوقتِ الحَالِي البقاءَ هُنَا، وَأنَا ليسَ لِي زوجَةٌ وَلاَ ولدٌ، وَكَيْ تُوَاصلَ مَا كنتَ تفعلُهُ مِنْ خيرٍ عندمَا كنْتَ أمينًا لدِيوانِ بيْتِ المَالِ، وَلأنكَ حَرَصْتَ عَلَى إظهَارِ براءةِ سَلفِكَ «أبو الفضل الدينارِىّ» صَاحِب كُلِّ هَذِه الثروَةِ الَّتِي أَعِيشُ فِي نَعِيمِهَا، فإننِي مُنْذُ الآنَ أَعتبرُكَ كابنٍ لِي، تعيشُ مَعِي فِي قَصْرِي هَذَا أنتَ وابنتِي ياسمين وَحَفيدَتِي بسمة، تُواصِلونَ فِي حَيَاتِي وَبَعْدَ رَحِيلِي استِضَافَةَ خمسَةِ مُحْتَاجِينَ كلَّ مَسَاءٍ عَلَى مَائِدَةِ عَشَائِكُم..».

وتَمهَّلَ لحظَةَ ثُمّ أَضَافَ فِي تَأْكِيدٍ: «لعلَّ النَاسَ يثِقُونَ جَمِيعًا أَنَّ نَهْرَ الخَيْرِ سَيظَلُّ مُتدَفِّقًا أبدًا لاَ ينقَطِعُ !.

تمت

